القصة بيت الطفل

(الأطفال يستكشفون القصص وينتجون معانيهم)

فيفيان طنوس

تمتلك القصة مساحة كبيرة من حياة الطفل، فهي تعتبر إحدى أهم الوسائل التي يشعرون من خلالها بالعالم من حولهم. ومن هذا المكان، انطلقت تجربة المعلمة من استخدام القصة كوسيلة تساعدهم في صناعة المعنى لأنفسهم، والجمع بين الخيال والحقيقة في جو مفعم باللعب والمتعة والحركة.

تساءلت دوماً: كيف يسكن الأطفال في القصة؟ وماذا تعطيهم؟ لكن عندما كنت أريد بناء لحظة درامية (حرجة) عبر توظيف قصة الأميرة والكرة الذهبية، وبنيت مبررات الأميرة، فالكرة هدية من أمها المتوفاة، وبالتالي هي حريصة على استعادتها، والضفدع يريد أن تأخذه معها إلى القصر، وهي لا تستطيع، لأن والدها يكره الحيوانات، كنت في ورطة: كيف أبرر طلب الضفدع؟ وهل يحق له أن يطلب من الأميرة أن تصطحبه إلى القصر ثمناً لمساعدته لها لاستعادة كرتها التي وقعت البئر؟ عندها أهداني أحد الأطفال كرة ذهبية. قال: البئر بيت الضفدع. هدية ذهبية جاءت في الوقت المناسب، «تلقفتها» وبنيت الصراع الدرامي عليها. لقد قدم لي هدية ساعدتني على بناء اللحظة الحرجة، وأعطاني عنواناً للتجربة، وأكد لي فكرة: أننا إذا أصغينا لهم جيداً يمكننا أن نأخذ الكثير، ويمكنهم أن يعطونا دائماً ما هو طازج.

هم أسرى القصة أم صانعوها؟

في بداية ممارستي مهنة التعليم لمرحلة الطفولة المبكرة، اعتدت أن أروي للأطفال كل يوم قصة جديدة، وقد كنت أرويها بالطريقة التقليدية؛ أي إما جالسة وإما واقفة مع تغيير في نبرة صوتي، وما أكاد أنهيها حتى أجد الأطفال قد ملّوا منتظرين الانتقال للنشاط التالي... واستمريت هكذا حتى حظيت بالانضمام إلى مدرسة

القطان الصيفية: توظيف الدراما في سياق تعليمي، التي علمتني الكثير الكثير، ومن أهمه «بناء القصة الدرامية».

ومع الاستعانة بها في تغيير طريقتي في عرض القصة لطلابي في المدرسة، استطعت أن ألحظ الفرق بكل سهولة على صعيدين: الأول هو الصعيد الذاتي؛ أي الاستمتاع في العمل والرغبة في البحث والتعمق أكثر، ومشاركة الأطفال في الاستكشاف، والإجابة عن الكثير من التساؤلات، فقد أصبح اختياري دائماً للقصة يبدأ من فكرة مهمة، وهي «ماذا سيستكشف الطلاب في القصة؟ وكيف سأساعدهم على أن يبنوا مسار تعلمهم أثناء تفاعلهم واستمتاعهم بذلك في الوقت ذاته؟». إضافة إلى أنني كنت في كل مرة أكتشف أشياء جديدة عند الأطفال من مواهب، وقدرات خفية تقربني منهم وتقربهم مني. أما على الصعيد الثاني، فتمثل في التغيرات التي كانت تحدثها كل قصة عندهم، وإصرارهم المستمر على طلب المزيد، وعدم التذمر من إعادة شيء سبق، وإن عملوا عليه، مع انخراطهم الشديد في العمل.

فالطلاب بالقصة الدرامية يكونون عنصراً فعالاً ومساهماً من بداية القصة حتى نهايتها، فهي تسير بهم ولهم، فهم يسيرون النشاط، ويعبرون من خلاله إلى تخيلاتهم واهتماماتهم.

وحتى تتضح لكم الصورة أكثر، سأعرض عليكم بالتفصيل والصور نتاجاً لعمل في سياق إحدى القصص التي تفاعل الأطفال معها، وما قاموا به من استكشاف حول مفهوم «الوعد والوفاء به»، وما يترتب عليه من مفاهيم أخرى (كالأمانة، وعدم الكذب، والصدق، وتحمل المسؤولية).

ماذا يمكن للطلاب أن يفعلوا من خلال القصة الدرامية؟

يصغون بشغف

يبدعون بالرسم

يتخيلون

يلعبون أدواراً

يتحاورون

يعملون تسويات

يصنعون قرارات

يقطعون وعوداً

يكسرون حاجز الصمت

يصغون بشغف

بدأت برواية القصة للطالبات :

كان يا ما كان في قديم الزمان أميرة تدعى سلمى، كانت تعيش سلمى مع أبيها في قصر كبير وحدهما، بعد أن توفيت والدتها. وقبل أن تتوفى والدتها أهدتها كرة ذهبية جميلة، وطلبت من سلمى أن تعدها بالحفاظ عليها وإبقائها معها أينما ذهبت.

في يوم من الأيام، قررت سلمى أن تدخل إلى الغابة الموجودة بجانب القصر التي لم تدخلها من قبل.

(هنا توقفت لأعطي الطالبات فرصة ليبنين تخيلهن حول هذه الغابة، وليطورن إحساسهن أكثر بالمكان الذي تدور فيه أحداث القصة). ولأساعدهن على ذلك، قمت بما يلي :

1. أعطيتهن فترة صمت ليتخيلن المكان.
2. طرحت عليهن مجموعة من الأسئلة حول ماذا يمكن أن ترى سلمى في الغابة؟
3. تركت لهن مساحة ليتحاورن ويتبادلن الأفكار.
4. وزعت عليهن الألوان والأوراق، وبدأن بالرسم.
5. وضعت في هذه الأثناء غطاء على أرضية الغرفة ومجسماً للقصر.
6. أعطيتهن فرصة ليرسمن ما يرينه من خلال أعين الأميرة :

يتخيلن ويرسمن :

- ما استوقفني هنا شيء مهم، هو أنه لم تتردد أي طالبة بالرسم أو تتذمر من عدم قدرتها بالقيام بذلك، بل كلهن أسرعن يرسمن ويلونّ.
- يعود ذلك إلى أنهن موجودات في سياق يرسمن فيه بأعين الأميرة؛ أي يرسمن من داخل الدور، فهن بذلك محميات.

7. بعد الانتهاء من الرسم، وضعت كل طالبة رسمتها بالمكان الذي أرادته (وهن بذلك ينتجن علاقات بين الأشياء في الحيز).

تابعت القصة . . .

وبينما كانت الأميرة تمشي في الغابة، وتستمتع بما تراه من أشجار بأحجام مختلفة وورود بألوان عدة، وفراشات وطيور وحيوانات (طبعاً كنت أذكر الأشياء التي رسمتها الطالبات) كانت فرحة جداً، وأخذت تلعب بكرتها الذهبية. وفجأة! حدث ما لم تكن تتوقعه، إذ وقعت كرتها الذهبية في بئر كانت في ذلك المكان.

حاولت سلمى أن تجد طريقة لتستعيد بها الكرة، ولكنها لم تستطع، فالبئر عميقة. جلست على حافة البئر وأخذت تبكي، وإذا بها تسمح أحداً يقول لها : «ما بك أيتها الأميرة الجميلة؟».

أجابت سلمى : «من أنت وأين أنت؟»

أجابها : انظري أمامك فأنا هنا.

نظرت سلمى فرأت ضفدعاً قبيحاً يقف بجانبها وروت له ما حدث معها.

قال لها الضفدع : أنا يمكنني مساعدتك، لكن بشرط أن تصطحبيني معك إلى القصر لأعيش هناك.

تفاجأت بعض الطالبات من طلب الضفدع، ولم أكن متأكدة كمعلمة من ردود فعلهن من شرعية طلب الضفدع، لأنني كنت أركز على أهمية الكرة للأميرة ورغبتها في الحصول عليها وملكيتها لها، وفاجأتني إحدى الطالبات بقولها : «لازم يطلب شو بدو لأن الكرة في البئر، والبئر هو بيت الضفدع».

يتحاورن ويلعبن أدواراً

هنا حاولت أن ابني سياقاً للحوار بين الأميرة والضفدع، وأوفر أفضل الآليات التي تمكن الطالبات في أن ينخرطن في الحوار، فاستخدمت آلية الطلاب في دور، وعشوائياً انقسمت الطالبات إلى ضفادع وأميرات. ومن خلال لعب الأدوار، كان عليهن أن يحاورن ويناورن ويناقشن ويقنعن بهدف التوصل إلى تسوية: «هل يحق للضفدع الذهاب إلى القصر من منطلق أن الكرة في بيته، وأنه سيساعد الأميرة على استعادتها، وأن الأميرة من حقها أن تستعيد الكرة لأنها هدية من والدتها؟».

وحتى أضبط النشاط وأرفع درجة التحدي والإسراع في اتخاذ القرار، قمت بوضع بعض الإعاقات لهم من خلال تحديد الوقت بقولي: «عليكن الإسراع في اتخاذ القرار، فالوقت بات متأخراً، ولن تستطيع رؤية طريق العودة إلى القصر، وسيقلق الملك كثيراً، وعلى الأميرة أن تحاول الحصول على الكرة، لأنها وعدت أمها بأنها لن تتخلى عنها، وقبل أن تقطع أي وعود، عليها أن تتذكر بأن والدها الملك يكره الضفادع كثيراً، ويعارض وجودها في القصر.

يصنعن قرارات ضمن تسويات ويقطعن وعوداً

تقمصت الطالبات الأدوار وتحاورن وناقشن إلى أن توصلن إلى قرار نهائي. وحتى أعرفه، طلبت إليهن الجلوس في المجموعة الكلية ودار نقاش بيني وبينهن، حيث عبرت كل واحدة منهن عن قرارها من وجهة نظرها ودافعت عن فكرتها. وحتى نستكشف معاً تفاصيل أكثر حول ما جرى، طرحت عليهن مجموعة من الأسئلة:

- من أعطى الكرة للأميرة؟
- هل وعدت الأميرة باصطحاب الضفدع؟
- هل الضفدع صدق الأميرة ووثق بأنها ستفي بالوعد؟
- بماذا شعرتن وأنتن في داخل الدور؟
- هل مهم لكم كأشخاص أن من يعدكن أن يفي بوعده إليكن؟

وهذه هي بعض الإجابات التي حصلت عليها:

الضفادع:

- إنني أعطيتها الكرة، لأنها وعدتني بالعودة لاصطحابي وهي أميرة، والأميرات يفين بالوعود دائماً.
- بما أنها أميرة، فهي تستطيع القيام بما تريد وبذلك تستطيع اصطحابي للقصر.
- أنا ساعدتها، وهي بالمقابل يجب أن تساعدني في الخروج من هذه البئر.
- قالت إنها ستعود بعد أن تقنع أباها بأن أعيش معها في القصر.

الأميرات:

- سأعود لاصطحابه لأنني وعدته بذلك، ولن أدعه يعتقد أنني كاذبة.
- سأعود وأصطحبه للقصر وأخبئه، ولن أدع أبي يراه.
- سأحممه وأضع له عطراً، وسيصبح جميلاً ورائحته جميلة، وسيحبه والدي.
- سأعود لاصطحابه لأنني وعدته بذلك، وأنا إذا وعدت أحداً أحب أن أفي بوعدي، لأنني إذا وعدني أحد بشيء، ولم يفِ، فإنني لا أعود أصدقه، ولا أحب أن أتكلم أو العب معه.
- سأعود لأنني أميرة والأميرات لا يكذبن.
- سأعود لأنه ساعدني، وأنا سأكافئه بمساعدته لي، وسأصطحبه معي إلى القصر، وعندما سيعرف والدي بأنه ساعدني سيفرح بأنني فعلت ذلك.

تابعت القصة وهن جالسات يصغين . . . .

بعد أن حصلت الأميرة على الكرة الذهبية همت بالعودة إلى القصر، وهي في الطريق أخذت تفكر في الذي حدث معها، وماذا ستفعل اتجاه الوعد الذي قطعته للضفدع، وهل ستعود أم لا، مع الاعتبار أن الأميرة وعدت بذلك.

وهذا التساؤل هيأ فرصة للطالبات ليفكرن بقرار الأميرة. وحتى أتوصل إلى الذي كان يدور في أذهانهن، قمت بنشاط جديد، استطعت من خلاله أن استمع إلى أصوات مختلفة تدور في رأسهن، وذلك بعدما طلبت إليهن الوقوف في خطين متقابلين، ويبقين على ممر بالوسط، ويتخيلن أنفسهن في لحظة ما بعمق هذه الشخصية «الأميرة»، ويحاولن أن يستكشفن، ويقلن بصوت مرتفع الذي تفكرن فيه، وقامت إحدى الطالبات بتقمص دور الأميرة، والسير من هذا الممر.

يكسرن حاجز الصمت

تحدثت الطالبات وكأنهن مكان الشخصية (الأميرة)، وصدرت منهن أصوات عدة:

- ما ترجعي له بكرة بينسى.
- إذا رجعتي واخدتيه ابوكي رح يزعل منك.
- لازم ترجعي وتأخديه أنت وعدتيه.
- لازم ترجعي وتأخذيه لأنه ساعدك.
- هو ضفدع وما بيفهم، فما ترجعي له.
- لازم ترجعي بلاش يفكرك كذابة.
- ما تزعلي أبوكي منك، وما ترجعي له.
- لو ما ساعدك لخسرت الكرة، وما رجعتْ لك، فلازم ترجعي.
- ما ترجعي بالمرة عَ الغَابة كلها، وانسي أمر الضفدع.

بعد انتهاء النشاط عاودنا الجلوس في دائرة وتابعت.

تابعت الأميرة طريق عودتها، إلا أن وصلت إلى القصر، وبيدها كرتها الذهبية، وما أن دخلت حتى وجدت أبيها في انتظارها.

هنا رأيت أن الفرصة مناسبة لأكون شريكاً في القصة من خلال لعب

دور الملك الذي كان في انتظار الأميرة، ويهدف هذا النشاط إلى :

- كسر دوري التقليدي كمعلمة .
- استمع إلى القصة من وجهات نظر مختلفة .
- الحصول على سيناريوهات مختلفة للأحداث .
- أحاورهن ويحاورنني ويحاولن إقناعي بوجهة نظرهن ونحن في الدور .

فاستعددت وبدأت بلعب دور الملك، وبدأت بمخاطبتهن كوني والدهم الملك وهن الأميرة . ودار حوار بيني وبينهن حول ماذا على الأميرة أن تفعل تجاه الوعد الذي قطعته، وبدأت عملية التفاوض حول الغايات المختلفة لديهن (الملك والأميرة) .

يرين بسيناريوهات مختلفة

وبعد أن روت الأميرة للملك ما حدث معها في تلك الغابة، وأقنعته بأهمية الوفاء بالوعد الذي قطعته للضفدع، قررت في اليوم التالي العودة واصطحاب الضفدع معها إلى القصر كما وعدته . وفرح الضفدع كثيراً بصدق الأميرة وبوفائها بالوعد، وعاش معها في القصر، وأصبح من أقرب أصدقائها .

بعد الانتهاء من العمل في القصة مع الطالبات، شعرت أن الأهداف التي سعيت إلى العمل معهن على تحقيقها فاقت تصوراتي وتوقعاتي، فبجانب الأشياء التي ذكرتها سابقاً، فقد لامست هذه القصة محطات مهمة من حيات الطالبات، وبدأن يفرغن ويربطن بسرد قصص واقعية من حياتهن :

فإحدى الطالبات والداها منفصلان، وتعيش مع أبيها . قالت : أمي أهدتني حذاء ووعدتها بأن ألبسه وأحافظ عليه، وقد لبسته كثيراً لأنه من أمي، وفضلته على باقي الأحذية الموجودة لدي، وهو الآن صغير وممزق قليلاً، إلا أنني ما زلت احتفظ به حتى الآن، ولا أريد رميه لأني وعدتها بالاحتفاظ به .

أخرى قالت : قبل أن تتوفى جدتي ألبستني سوار ذهب، وطلبت مني أن أعدها بالاحتفاظ به، وأنا عند وعدي لها .

كما رأيتم . . فالقصة كان لها أثر لدى الطالبات، ولدي أيضاً، فأنا تنبهت لأهمية القصة، وبخاصة في المراحل المبكرة من حياتهن، فهي تنمي خيالهن، وتجعلهن ينخرطن بسرعة فيها، وتشجعهن على الحوار والكلام، لأنهن يكن محميات في داخلها . ومن خلال تجاربي المتعددة في القصص، رأيت أن معالجة أو طرح المواضيع على الطالبات من خلال القصص الدرامية يكون فعالاً، ويبقي أثراً أطول لديهن، ويكون أفضل من العظات ذات الأثر السريع الزوال .

فيفيان طنوس
معلمة روضة – مدرسة راهبات مار يوسف – رام الله